

النهر الذهبي

بقلم : د . عبد العزيز عتيق
رسم : مصطفى حسين

دار الشروق



بقلم : د . عبد العزيز عتيق

رسم : مُصطفى حسين

دار الشروق

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م

دار الشروق

بيروت: مارالياس ـ شارع سيدة صيدنايا ـ بناية صفا
ص.ب: ٨٠٦٤ ـ برقيا: داشروق ـ تلكس ٢٠١٧٥ LE
SHOROK ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ ٨١٧٧٦٥
٨٦٧٥٥٥ ـ ٣٠٧٩٨٤

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ت: ٣٩٢٩٣٣٣ / ٣٩٣٤٥٧٨
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ ـ تلكس ٩٣٠٩١ SHROK UN
٨ شارع سيبويه المصري ـ مدينة نصر. ت ٢٦٢٣٣٩٨
٢٦٢٣٥٤٨ ـ فاكس ٦١٧٥٦٧

النهر الذهبي

ـ ١ ـ

القصةُ التي سأقُصُّها الآنَ عليك حَدثتْ مُنْذُ سنواتٍ طويلةٍ مضَتْ ، وقد دارت حوادثُها بوادٍ صغيرٍ جميلٍ في جِهَةٍ بعيدةٍ من جِهاتِ الأرضِ ...

كانتْ شمسُ هذا الوَادِي تُشْرِقُ دافئةً ، وأمطارُه تنزلُ رَذاذاً خَفيفاً . وكانَ تُفَّاحُ هذا الوَادِي أحمرَ شَديدَ الحُمْرةِ ، وعِنَبُهُ أَبْيَضَ شديدَ البياضِ ، وَقمحُه أصفرَ شديدَ الصُّفرةِ . منْ أجْلِ ذلك كلِّه كانَ يُعرَفُ بوادي الكَنْزِ .

وكان النهرُ الوحيدُ الذي يجري في هَذَا الوادي يَنْحَدِرُ مِنْ قِمَمِ جِبَالٍ على أَحَدِ جَانِبَيْهِ ؛ وكان غُروبُ الشمسِ كلَّ مَساءٍ يَصْبُغُ شَلّالَهُ العَالي بلونٍ ذهبيٍّ ، ولهذا سُمِّيَ بالنهرِ الذّهبيِّ .

وكان وَادِي الكَنْز هذا مِلْكاً لإِخْوةٍ ثَلاثَةٍ : هَانْز ، وشْوَارْتز ، وجُولُوكْ . وقدِ اشْتَهَر الأخُ الأصغرُ جُولُوك بِطيبةِ القلب وَمَحبَّةِ النَّاسِ . أما هَانْز وشْوارْتز فَاشْتَهرَا بالْقَسْوَةِ في مُعاملةِ النَّاسِ ، حتى عُرِفا في كلِّ مكانٍ حَوْلَهُما بالأخَوَيْنِ القَاسِيَيْنِ .



كَانتْ قَسْوَةُ هذَيْنِ الأخوَيْنِ عَلَى عُمَّالِ مَزْرَعَتِهما قَسْوَةً فَظيعةً ! وكَانتْ قَسْوَتُهُما على مَن يَشتري منهما شيئاً قَسْوَةً فَظيعةً ! وكانتْ قَسْوَتُهما على الفقراءِ قَسْوَةً فَظيعةً ! ولكنَّ قَسْوَتَهما على أخيهما الأصغرِ جُولُوكْ كانت أَقسَى وأَفظعَ ! !

ولَمَّا بلَغَ الأخوَانِ القَاسِيَان ، هَانز وشُوَارْتز ، حَدًّا لا يُطاقُ مِنَ القَسْوَةِ والفَظاعَةِ ، غَضِبتْ عليهما الرِّيحُ الغَرْبيَّةُ وانْتَقَمتْ منهما .

قَالتِ الرِّيحُ الغَرْبيَّةُ للرِّيحِ الجنوبيَّةِ :

– أيَّتُها الشَّقِيقَةُ الجَنُوبيَّةُ ، أَرْجُوكِ أَنْ تَمْنَعِي المَطرَ عَنْ وَادِي الكَنْزِ الذي يعيشُ فيه الأَخوَانِ القاسِيَانِ ! إِمْنَعِيه عِقَاباً لَهُما عَلَى قَسْوَتِهما !

وهكذا انقطعَ المطرُ ، فَجفَّ النَّهرُ الذَّهبيُّ ، وعلى مَرِّ الأيام تَحوَّل وَادِي الكنزِ إلى صَحْراءَ مِنَ الرِّمالِ .

– ٢ –

ولَمَّا رَأى هانْز وشُوارْتز ما أَصابَ الوَادِي ، تركَاهُ وصعِدَا يَجُولَانِ فَوْقَ قِمَمِ الجبالِ التي على الجَانِبِ الآخَرِ للوَادِي واَضطُرَّ أخوهُما الأَصْغَرُ جُولُوك أن يرافِقَهُما .

وقدِ اْعْتَادَ الأَخوَانِ القاسِيَانِ أن يَخرُجا كلَّ صباحٍ ، تاركَيْنِ جُولُوك وَحْدَهُ في البيت . ولم يكنْ لهما عَمَلٌ طَوَالَ اليومِ سِوَى أَذَى الناسِ والإساءَةِ إليهم ! ..

وقد قَضَوْا على قِمَمِ الجبالِ زمناً طويلاً ، يعيشون على ما ادَّخَرُوهُ مِنْ مالٍ في أيامِهِم الأُولى . واَسْتَمَرَّ الحالُ على هذا المِنْوَالِ حتى نَفَدَ كلُّ شَيءٍ ، ولم يَبْقَ غَيْرُ كُوزٍ ذَهَبِيٍّ كان مِلْكاً لِجُولُوكْ .

عِنْدَئِذٍ قَرَّرَ هانْز وشْوَارْتز أن يَصْهَرَا هذا الكُوزَ ويَصْنَعا منه أَدواتٍ ذَهبيَّةً يبيعانِها ويأكُلانِ بثمنِها . وعارضَ جُولُوكْ ، فقد كان الكُوزُ كُوزَهُ ، ولكنَّ الأَخَوَيْنِ لَم يَرِقَّا لِدُموعِهِ ووضَعا الكوزَ في وِعاءِ الصَّهْرِ ، وَأَجْبَرَاهُ على مُرَاقَبَتِه ثم خرَجَا كعَادَتِهِمَا .

جلسَ جُولُوكْ المِسْكِينُ قُرْبَ النَّافِذةِ مُحَاوِلاً أَلَّا يَبْكِيَ على كُوزِهِ الذَّهَبِيِّ العزيز . وحينما بَدَأَتِ الشمسُ في الغروب رأى جُولُوك شَلَّالَ النهرِ الذَّهَبِيِّ الجميلِ يتحولُ لَوْنُهُ مِنْ أحمرَ إلى أصفرَ ، ثم إلى ما يُشْبِهُ الذَّهبَ الخالِصَ ! عِنْدَئِذٍ قال جُولُوكْ لنفسِه :

– آه ! يا لَلْعَجَبِ ! ما أَسْعَدَني لو كانَ هذا النهرُ منْ ذَهَبٍ حقًّا ! عِنْدَئِذٍ كنتُ أصبحُ غنيًّا ، لا فقيراً كما أنَا الآنَ !

وفجأةً سَمِعَ صَوْتاً خَافِتاً يقولُ :

– هل يُسْعِدُكَ أَنْ يتحَوَّلَ ماءُ النَّهرِ إلى ذَهَبٍ سَائِلٍ ؟

وَارْتَجَفَ جُولُوكْ خَوْفاً ، وصاحَ وهو يَلتفِتُ حَوْلَه :

– الرحمةَ ! الرحمةَ ! الرحمةَ ! ما هَذا ؟

وفجأةً مرةً أخرى سَمِعَ الصوتَ الخَافِتَ يُناديهِ :

– صُبَّنِي . أَشْعُرُ بِحَرَارةٍ لا تُحْتَمَلُ .

وَخُيِّلَ لِجُولُوكْ أَنَّ الصَّوْتَ يَأْتِي مُباشَرةً مِنَ الْفُرْنِ الذي عليه وِعَاءُ الصَّهْرِ . فوقَفَ يَرتعشُ جسمُه وتَصْطَكُّ أَسنانُهُ خَوْفاً . وفجأةً مَرَّةً ثالثةً سَمِعَ الصوتَ الهَامِسَ يُناديهِ :

– صُبَّنِي . صُبَّنِي . أَشْعُرُ بحرارةٍ لَا تُحْتَمَلُ ! أَلَا تَسمَعُ ؟

تَقَدَّمَ جُولُوك وهو خائفٌ نَحْوَ وِعَاءِ الصَّهْرِ فحَمْلَقَ فِيهِ بِعَيْنَيْهِ وَلَمَسَهُ بيدِهِ . وفجأةً مَرَّةً رابعةً سَمِعَ الصَّوْتَ الخَافِتَ يُناديهِ :

– صُبَّنِي ... أَقُولُ لكَ : صُبَّنِي ...

أَمْسَكَ جُولُوك بِمِقْبَضِ وِعَاءِ الصَّهْرِ ، وَبدأ يَصُبُّ الذَّهَبَ الْمُنْصَهِرَ . وفجأةً رَأَى ساقَيْنِ صَفْرَاوَيْنِ تَظْهَرَانِ ، ثمَّ ذَيلاً لِمِعْطَفٍ أَصفرَ ، ثمَّ جِسْماً صغيراً غَرِيباً أصفرَ ، ثم وَجْهاً نَحِيفاً أصفرَ ، ثم شَعْراً طويلاً ذَهَبيًّا !

وتساقطتْ كلُّ هذه الأشياءِ على الأرضِ واحدةً بعدَ الأخرى ، ثم انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ ، ثم خرجَ منها واقفاً قزَمٌ أَصْفرُ لا يزيدُ طوله على قدمٍ واحدةٍ .

صرخَ جُولُوك مِنَ العَجَبِ ، ولكنَّ الرجلَ القَصِيرَ الأَصْفرَ قال له :

– جُولُوك . هلْ تعرفُ مَنْ أَنا ؟ إِنِّي مَلِكُ النَّهرِ الذَّهَبِيِّ !

– ٣ –

وَقفَ جُولوك في مكانهِ جَامِداً صَامِتاً ، لا يَدْرِي مِنْ حَيْرَتِهِ مَاذا يقولُ ؛ ولكنَّ القَزَمَ الأصفرَ لم يَتْرُكْ لهُ فرصةً للكلامِ ، فعاد يُخاطبُه :

– جُولُوك . لقد رَاقَبْتُكَ مُدَّةً طَوِيلةً فوَجَدْتك شَابًّا طَيِّبَ القلبِ ! ولهذا أَحْبَبْتُكَ . وَالآنَ أُرِيدُ أَنْ أَقولَ لكَ شَيئاً يَنْفَعُكَ ، فَأَصْغِ إِلَيَّ !

إنَّ النَّهرَ الذهَبيَّ يَنْبعُ مِنْ قِمَّةِ هذا الجبَلِ ، فإذا صَعِدَ إنسانٌ إلى القِمَّةِ وَأَلْقَى في مَائِهِ ثَلاثَ قطَرَاتٍ مِنَ الماءِ المقَدَّسِ فإنَّ مِيَاهَ النَّهرِ تَصِيرُ ذَهَباً خَالِصاً يكونُ مِلْكاً لهُ وَحْدَهُ .

والشَّخْصُ السعيدُ المحظوظُ هو مَنْ يَبْلغُ قِمَّةَ الجَبلِ مِنَ المحاولةِ الأُولَى . واعْلَمْ أَنَّ كلَّ شَخصٍ يُلقِي بماءٍ غيرِ مُقَدَّسٍ في النهرِ سَيتحَوَّلُ إلى حَجَرٍ أسودَ .

وقبلَ أنْ يَنْطِقَ جُولُوك بكلمةٍ واحدةٍ مَشَى القَزَمُ الأصفرُ نحوَ النارِ واخْتَفَى بينَ لَهِيبِها المُشْتعِلِ !!

– ٤ –

وفي المَساءِ عَادَ الأَخَوَانِ القَاسِيَانِ ، وَلَمَّا لم يَجِدَا الكُوزَ الذَّهَبِيَّ ضَرَبَا أَخَاهُما الأصغرَ ضَرْباً مُبَرِّحاً .

وعندما أخبَرهُما بقصةِ مِلكِ النهرِ الذَّهَبِيِّ باتَ الأَخَوَانِ يَتشَاجَرانِ ؛ فكُلُّ وَاحدٍ منهما يُرِيدُ أن يَذهبَ هُوَ للحُصُولِ عَلى الذهبِ !

ولَمَّا كان هانْز أَقْوَى مِن شْوَارْتز فقد تَغَلَّبَ عليه ، ثم خرَجَ يَطْلُبُ الذَّهبَ لِنَفْسِه وَحْدَهُ ...

وقبلَ أَنْ يَبْدَأَ رِحْلَتَهُ ذهبَ إلى صَوْمَعَةٍ قريبةٍ يعيشُ فيها رَاهِبٌ ، وطَلبَ منه أنْ يُعْطِيَهُ بعضَ الماءِ المُقَدَّسِ ، ولكن الراهبَ رفضَ أن يُعْطِيَ هذا الرجلَ الشِّرِّيرَ أيَّ شَيءٍ . وظَلَّ هانْز يَحتَالُ على الرَّاهب حتى اَستطاعَ في النهايةِ أنْ



يَمْلأَ قِرْبَةً صَغيرةً كانتْ معَه مِنَ الماءِ المقدَّسِ ، ثم حَمَلَ ما ٱستطاعَ مِنَ الطَّعامِ وَأَسْرَعَ إلى الجبَلِ يَتَسَلَّقُهُ .

ولم يَمْضِ وَقْتٌ طويلٌ حتى كان هانْز قد بَلَغ قِمَّةَ التَّلِّ الأَوَّلِ . ثم بَدأَ في تَسَلُّقِ التَّلِّ الثَّاني ، وكان تَلًّا مِنَ الجَليدِ لم يَرَ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ .

كان عُبورُ هذا التَّلِّ بالنِّسْبَةِ إليْهِ عَمَلاً صَعْباً مُرْعِباً . فالجليدُ كانَ زَلِجاً تَتَخَلَّلُهُ فَجَواتٌ كَبيرةٌ كأنَّها أَفواهٌ فاغِرَةٌ تَبْتَلِعُ مَنْ يَدْنُو منها ! وكانت تَنْبَعِثُ مِنْ تَحتِ قَدَمَيْهِ أَصْواتٌ قَوِيَّةٌ تُشْبِهُ زَئيرَ الأُسُودِ !

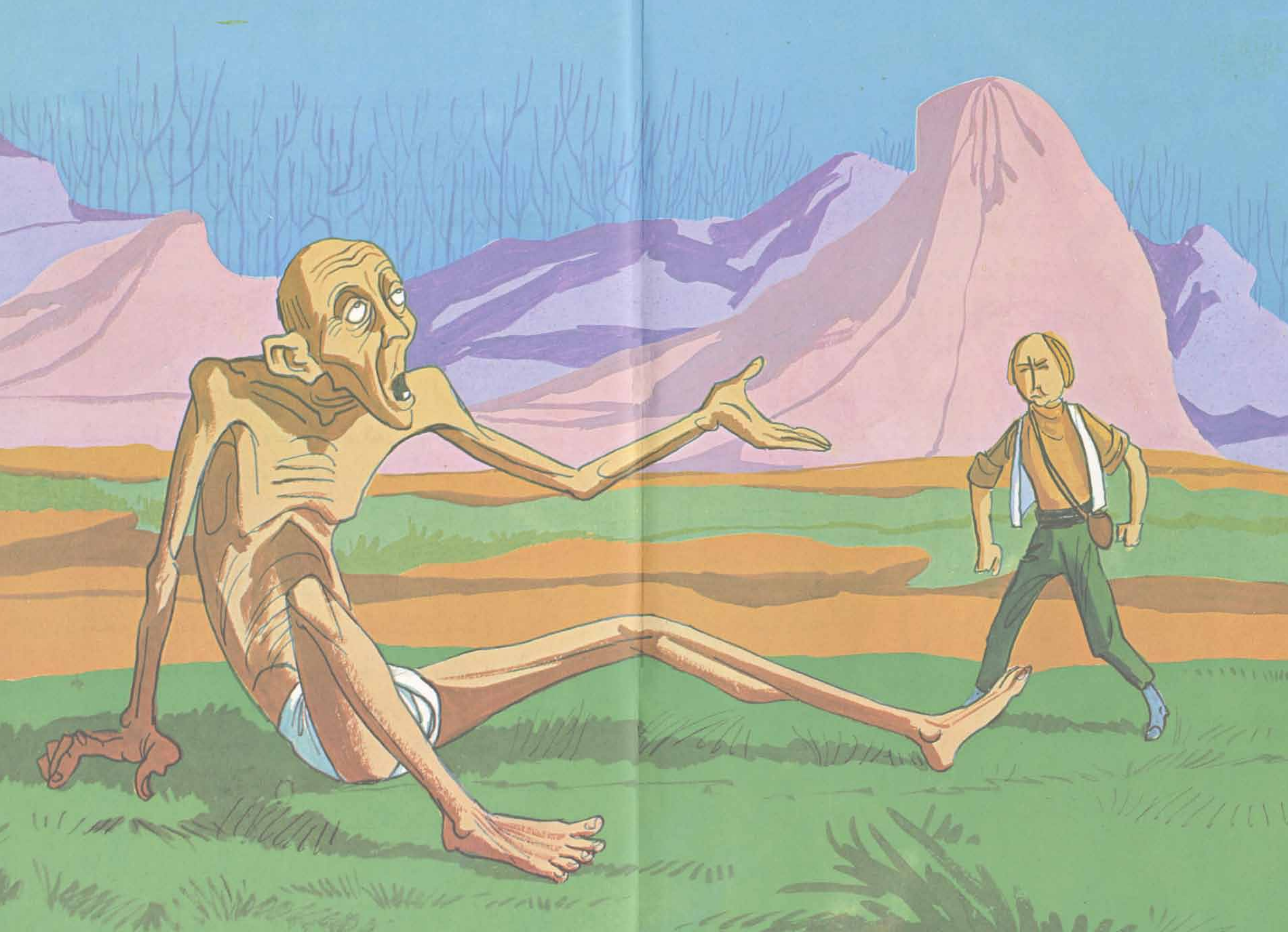
في هذه اللحظةِ ٱسْتَوْلَى عليه الفَزَعُ ، فوقع كلُّ ما كان معه منْ طعامٍ وَشَرَابٍ ! ثم بدأ يَشْعُرُ بِنَفْسِهِ عندما لَمَسَتْ قَدَمَاهُ أرضاً صَلْبَةً غيرَ زَلِجَة !

واستمرَّ في تَسَلُّقِهِ حتى بلغَ قِمَّةَ التَّلِّ الثَّاني . وهُناكَ رَأَى تَلًّا ثالثاً مُكَوَّناً مِنْ صُخُورٍ حمراءَ شديدةِ الحرارةِ . لقد كانت هذه الصخورُ عَارِيةً مِنَ الحشائشِ التي تُرطِّبُ قَدَمَيْهِ ، ومِنَ الظِّلِّ الذي يَحْمِيهِ مِنَ الحرارة التي تَصْهَرُ العَظْمَ !

وبعد تَسلُّقِ ساعةٍ شَعَرَ بالعَطَش الشَّديدِ ، فَأَمْسَكَ بِقِرْبَةِ الماءِ المقدَّسِ وقال لنفسه : « يَكْفِيني ثلاثُ قَطَرَاتٍ من هذا الماءِ . أُريدُ أنْ أُنَدِّيَ شَفَتَيَّ فَقَطْ » .

ولَمَّا هَمَّ بِرَفْعِ قِرْبَةِ الماءِ إلى فَمِهِ ، ظهر أمامَه فجأَةً كلبٌ صغيرٌ يكادُ يموتُ مِنْ شِدَّةِ العَطَشِ . كانَ لسانُ الكلبِ يَتَدَلَّى خَارِجَ فَمِهِ ، وسِيقَانُه لا





تَنْبِضُ بحياة ، وكان سِرْبٌ مِنَ النِّمَالِ السوداءِ يَزْحَفُ قُرْبَ شَفَتَيْهِ .

وأَخَذَ الكَلْبُ يَنظُرُ إلى قِرْبَةِ الماءِ في يَدِ هانْز بِشَكْلٍ يَدْعُو إلى الشَّفَقةِ والرِّثاءِ . ولكنَّ الرجلَ الشِّرِّيرَ رفعَ القِرْبَةَ إلى فَمِهِ وشَرِبَ منها ، ثم رَفَسَ الحَيَوانَ المِسكينَ بِقَدَمِهِ ومَشَى في طَرِيقِهِ ، دُونَ أَنْ يَرِقَّ قلبُهُ لهذا الكلبِ العَطْشَانِ !

— ٥ —

لم يَكَدْ هانْز يَفْعَلُ ما فَعَلَ حتى ظهَرت في السَّماءِ الزَّرقاءِ سَحَابَةٌ سَوْداءُ غريبةٌ ! ولكنَّهُ آستَمَرَّ في تَسَلُّقِهِ ساعةً أُخْرَى أخذتِ الصخورُ في خِلالها تَزْدادُ حرارةً على حَرارةٍ ، والطريقُ تَزْدادُ انْحِداراً وَوُعُورَةً . ولمَا لَمْ يَعُدْ يُطِيقُ الحرارةَ أكثَرَ من ذلكَ قال لنَفْسِهِ : « يجبُ أَنْ أَشْرَبَ . إنِّي أَشْعُرُ بعَطَشٍ شَدِيد » .

وَقَرَّرَ أَنْ يشرَبَ نِصْفَ ما بَقِيَ في القِرْبَةِ مِنْ ماءٍ . ولم يَكَدْ يَرْفَعُها إلى فَمِهِ حَتَّى رأى طِفْلاً أَمامَهُ يكادُ يَموتُ من شِدَّةِ العَطَشِ ! كانتْ عَيْنَا الطفلِ مُغْمَضَتَيْنِ . وَشَفَتَاهُ تَحْتَرِقَانِ مِنَ العَطَشِ ، وأَنْفاسُه تَتَرَدَّدُ لاهِثَةً !

ورأى هانْز هذا المنظرَ الذي يذُوبُ مِنْهُ الجمادُ ويَدْعُو إلى الرَّحْمةِ والشَّفَقةِ ، ولكنَّ قَلْبَهُ الغَليظَ الذي قُدَّ مِنَ الصَّخْرِ لم يَرِقَّ لَهُ ! لَقد شَرِبَ هُوَ . وأَطْفَأَ حَرارةَ عَطَشِهِ هُوَ ، ثمَّ استَأْنَفَ تَسَلُّقَهُ ، كأنهُ لم يَرَ شيئاً !

ولم يَكَدْ هذا المخلوقُ القَاسي القلبِ يفعلُ ما فعلَ حتى ظهرتْ سحابةٌ سوداءُ حَجَبَتْ وَجْهَ الشَّمسِ ، وحتى بدأتْ أشباحٌ وظلالٌ تَزْحَفُ على

جانبِ الجبلِ . ثمَّ ظهرَ الجبلُ أمامَه أكثَرَ انْحِدَاراً ، وأخذَ يَشْعُرُ بالهواءِ على جَبْهَتِهِ ثَقِيلاً كالرَّصَاصِ ! ثم بَدَأَ النَّهرُ الذَّهَبِيُّ يَبْدُو قريباً مِنْهُ !

ووَقَفَ هانْز لَحْظَةً يَسْتَجِمُّ ويَسْتَعِيدُ أَنْفاسَهُ ، ثمَّ شَرَعَ بعدَ ذلك يَتَسلَّقُ المسَافةَ القصيرةَ التي كانت تَفْصِلُ بينهُ وبَيْنَ مَنْبَعِ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ .

وبَيْنَما هُوَ مُجْتَهِدٌ في تَسَلُّقِهِ ، رَأى شَيْخاً عَجُوزاً نائماً على الطريقِ . كانتْ عيْنَا هذا الشَّيْخِ غائِرَتَيْنِ ، وَوَجْهُهُ أصفرَ شاحباً كوجْهِ المَيِّتِ . وصاح به الشيخُ :

— ماءٌ ! ماءٌ !

فقالَ له هانْز :

— ليس مَعي ماءٌ لمثِلكَ . لَقدْ عِشْتَ طويلاً وأَخذْتَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ! المَوْتُ لِمِثْلِكَ الآنَ أَفْضَلُ ! !

وبِلا رَحْمَةٍ مَشَى على جِسْمِ الشَّيْخِ العَجُوزِ . وفجأةً لمعَ نورٌ أزرقُ خَطَفَ بَصَرَهُ بُرْهَةً ثمَّ أَظْلَمَتِ السَّماءُ . وأخيراً وصلَ هانْز إلى حافَةِ شَلَّالِ النَّهرِ الذَّهَبِيِّ ، وكانَ صَوْتُ تدفُّقِ مائِهِ يُدَوِّي في الفَضاءِ .

عندئذ سحبَ هانْز القِرْبَةَ الصَّغيرةَ المعلَّقَةَ في رَقَبتِهِ والمُدَلَّاةَ تحت إبطِهِ ، وأَفْرَغَ ما بَقِيَ من مائها في تَيَّارِ النَّهرِ الشديدِ . ولم يَكَدْ يفعلُ ذلكَ حتى شَعَرَ بقُشَعْرِيرَةِ بَرْدٍ قارسٍ تَنْفُذُ في جِسْمِهِ كالسَّهْمِ أو الرَّصَاصَةِ ، فصرخَ صَرْخَةً عَنيفةً منَ الألمِ ، ثم وَقَعَ في النَّهرِ ، فَابْتَلَعَتْهُ مِياهُهُ ، وبهذا تحوَّلَ إلى « حَجَرٍ أسودَ » كما قال القَزَمُ الأَصْفَرُ ! !



وَلَمّا طَالَ غيابُ هانْز ولم يَعُدْ إلى البيتِ بَدأَ أخوهُ الأصغرُ جُولُوك يَقْلَقُ عَلَيْهِ ، وَيَخْشَى أنْ يكونَ قد أَصَابَه شَرٌّ . أما أخوه شُوَارْتز فعَلى العَكْسِ ، كان فَرِحاً لِعَدَمِ عَوْدَتِهِ ، كأنَّهُ كانَ يَتمنَّى لهُ الشرَّ والهَلاكَ .

وَبدأ شُوَارْتز يَتَهَيَّأُ للرحلةِ رَاجياً أن يكونَ حَظُّه في الحُصولِ على الذَّهبِ لنفسهِ أحسنَ من حظِّ أخيه . وقال لنفسهِ : « رُبَّما كان من المُسْتَحْسَنِ ألّا أَسْرِقَ الماءَ المقدسَ كما فعل هانْز » .

ولما لم يكنْ لَدَيْهِ مَالٌ مُطْلَقاً أَخَذَ بالْقُوَّةِ كلَّ ما ادَّخَرَهُ جُولُوك مِنْ عَمَلِه ، وذَهبَ إلى رَاهبٍ سَيِّئِ السُّمعَةِ واشترَى منه بعضَ الماءِ المقدَّسِ ؛ ثم حَمَلَ كلَّ ما استطاعَ منَ الطعامِ وأسرعَ إلى الجبلِ .

ولما تَسَلَّقَ التلَّ الأوَّلَ ووصل إلى تلِّ الجليد الكبيرِ أَدْهَشَهُ منظرُهُ كما أدْهَشَ هانْز مِن قَبْلِهِ . لقد تَهَيَّبَ في بَادِئِ الأمرِ من تَسَلُّقِهِ ، ولكنَّ رغبتَهُ القَوِيَّةَ في الحُصولِ على الذَّهَبِ دَفَعَتْهُ على التَّقَدُّمِ .

وزَلَّتْ قَدَمُهُ على الثلج عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، وَاعْتَرَاهُ الخوفُ والرُّعبُ لسَماعِ أصواتِ الرياحِ القويةِ التي كانت تَزْأَرُ كالأُسُودِ ! وعلى الرَّغْمِ مِن وُقُوعِ مَا كان مَعَهُ مِنْ طعامٍ فإنَّ فَرَحَهُ كان شديداً عندَما عبرَ هذا التَّلَّ الْجَليدِيَّ !

ولما بَلغَ التَّلَّ الثَّالثَ وَجَدَهُ مُكَوَّناً مِنْ صُخُورٍ حمراءَ شديدةِ الحرارةِ لا حشائشَ عليها تُرَطِّبُ الأقدامَ ، ولا ظِلَّ يَحْمي مِنَ الحرارةِ التي تَصْهَرُ الْعَظْمَ !



على هذا التَّلِّ شعَرَ ، كما شعَرَ هانْز مِن قَبْلُ ، بالحرارةِ ، فقرَّر ، كما قرَّر هانْز من قَبْلُ ، أن يشربَ شيئاً من الماء المُقدَّسِ .

ولم يَكَدْ يَرْفَعُ القِرْبَةَ الصَّغِيرة إلى فَمِهِ حتى رَأَى نفْسَ الطفلِ الذي رآهُ هانْز مِنْ قبْلُ . قال له الطفلُ :

– ماءٌ . ماءٌ ! إني أموتُ من العَطَشِ !

فردّ عليه شُوَارْتَز :

– الماءُ الذي مَعي لا يكادُ يكْفِيني وَحْدِي .

ثُمَّ تَرَكَه وَمَشَى في طَرِيقهِ . وفَجْأَةً ظَهرتْ في الْأُفُقِ الْغَرْبِيِّ سحابةٌ سَوْداءُ مُنْخَفِضَةٌ . وبعد تَسَلُّقِ ساعةٍ غَلبَ عليهِ العَطَشُ مَرَّةً ثانيةً . وبينما هو يرفَعُ القِرْبَةَ إلى فمِهِ رَأَى شَيْخاً عَجُوزاً أمَامَه يَصِيحُ به :

– ماءٌ . ماءٌ ! هَلْ مَعَكَ مَاءٌ ؟

فقال شْوَارْتز له :

– ابْتَعِدْ ! ما معي منَ الماءِ لا يكادُ يكفيني وَحْدِي .

وفجأَة ظهرَ ضَبابٌ أحمرُ كالدَّمِ حَجَبَ وجهَ الشمسِ ، ولكنَّ رغبةَ شُوَارْتَز في الذَّهَبِ كانتْ أَقْوَى من كلِّ شَيْءٍ ، فاستمرَّ في طريقهِ . وبَعد تَسَلُّقِ ساعةٍ أُخْرى غلبَ عليه العَطَشُ مرةً ثالثةً . ولم يَكَدْ يُقَرِّبُ القِرْبَةَ الصَّغِيرةَ منْ فِمِهِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ رَأَى شَبَحَ أخيه هانْز باسطاً ذِرَاعيْهِ في تَوسُّلٍ لِيُعْطِيَه شَرْبَةَ مَاءٍ .



وبَدَلَ أَنْ يُعْطِيَهُ شُوَارْتز بعضَ الماءِ ضَحِكَ قائلاً : « ها . ها ! هل تَظُنُّ أَنِّي أحضرتُ الماءَ لَكَ هنا ؟ »

ثم مَشى على شَبحِ أخيهِ ، وبعدَ خُطُوَاتٍ اَلْتفتَ وَرَاءَهُ فإذا شَبَحُ أَخِيهِ قد اخْتَفَى !

وأخيراً وصلَ شُوَارْتز إلى حَافَّةِ النَّهرِ الذَّهبيِّ ، فإذا أمواجُه سوداءُ ! وإذا صوتُ هَديرِ مائه يُدَوِّي في الفَضاءِ ! عِنْدَئِذٍ سَحَبَ القِرْبَةَ الْمُعَلَّقَةَ في رَقَبَتِهِ وَالْمُدَلَّاةَ تَحْتَ إِبطِهِ وَأَفْرَغَ ما بَقِيَ من مائها في النَّهر .

ولم يكَدْ يفعلُ ذلك حتَّى خطَفَ البرقُ بَصَرَهُ ، وحتَّى غَاصَتِ الأَرْضُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ ، وحتى فَاض النهرُ فَأَغْرَقَهُ وابْتَلَعَتْهُ مِيَاهُهُ . وبهذا تَحَوَّلَ إلى « حَجَرٍ أَسْوَدَ » كما قَالَ الْقَزَمُ الأَصْفرُ !

— ٧ —

ولما وجدَ جُولُوك نفسَهُ وحيداً قَرَّر أن يُجَرِّبَ حَظَّهُ مع النَّهرِ الذَّهَبيِّ . وقَبْلَ أَنْ يَشْرَعَ في رِحْلَتِهِ ذَهبَ إلى الرَّاهبِ فأَعطاهُ مَسْرُوراً بعضَ الماءِ المقدَّسِ . ثم حَمَلَ ما استطاع منَ الطعامِ وأسرعَ إلى الجبلِ يَتَسَلَّقُهُ .

كان تَسلُّقُ تَلِّ الجليدِ صَعْباً عليه جدًّا ، لأنهُ لم يكُنْ قَوِيًّا مِثْلَ أَخَوَيْهِ . وفي أثناءِ تَسلُّقِهِ زَلَّتْ قَدَمُهُ مرَّاتٍ ، ووَقعَ ما كان معهُ من طَعامٍ . وبَعْدَ تَسلُّقِ ساعةٍ غَلَبَ عليه العَطَشُ .

ولم يكَد يرفعُ القِرْبَةَ الصَّغِيرةَ إلى فمِهِ حتى رَأَى رَجُلاً عَجُوزاً ضَعيفَ الجِسْمِ يقْتَرِبُ مِنْهُ قائلاً :

– أَنْقِذْني من العَطَشِ ! يكادُ يُغْمَى عليَّ من شِدَّةِ العَطَشِ . أَعْطِنِي شَرْبَةَ ماءٍ .

ورأَى جُولُوك أنَّ العَجُوزَ في حَالَةٍ يُرثَى لها ، فقدَّم إليه القِرْبَةَ ورجَاهُ أَلَّا يَشْرَبَ كلَّ ما فيها منْ ماءٍ . ولكنَّ العَجُوزَ كان عطشانَ جداً فشربَ مُعْظَمَ الماءِ ، ثمَّ رَدَّ إليهِ القِرْبَةَ شاكراً وراجياً لهُ رِحْلَةً سَالِمةً سَعِيدةً .

وَاستأْنَفَ جُولُوك تَسَلُّقَهُ مُغْتَبِطاً رَاضِياً . ولَمَّا وَصَلَ إلى تَلِّ الصُّخُورِ الحمراءِ الشديدةِ الحرارةِ ، وجدَ الحشائشَ تكْسُوها ، والظِّلالَ تكْثُرُ فيها ، وَالْجَنَادِبَ « أبو النُّطَّيط » تغَنِّي في أَرْجَائِها .

وَبَعْدَ تَسَلُّقِ ساعة أُخْرَى شعَرَ جُولُوك بالعَطَشِ مَرَّةً ثانيةً . ولم يكَدْ يَرفعُ القِرْبَةَ الصَّغِيرَةَ إلى فمِهِ حتى رَأَى أَمامَه طِفْلاً نائماً على حَالٍ منَ العَطَشِ تَسْتَدْعِي الشَّفَقَةَ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ ووَضعَ فمَ القِرْبَةِ بينَ شفتيه فشربَ الطفلُ ما بَقِيَ فيها إلَّا بِضْعَ قَطَرَاتٍ قَلِيلةٍ ، ثم نَهَضَ يَجْرِي إلى أَسْفَلِ الجبَلِ .

عندئذ تلَفَّتَ جُولُوك حَوْلَهُ فإذا أزهارٌ جميلةٌ تَنْمُو على الصخورِ ما بينَ بَيْضَاءَ وحَمْرَاءَ وصَفْرَاءَ ، وإِذَا فَرَاشَاتٌ مُخْتَلِفَةُ الأَلْوَانِ تُرَفْرِفُ في الفضاءِ .

وكادَ جَمالُ هذَا المنظرِ يُنْسِي جُولُوك مُهِمَّتَهُ ، وَلَكِنَّهُ سَرْعانَ ما تذكَّرَ ، فَاستَأْنفَ تَسَلُّقَهُ ، وفي أَثْنَاءِ ذلك اشْتَدَّ به العَطَشُ حتى بَلَغَ دَرَجةً لا تُحْتَمَلُ ، فَأَلْقَى نَظْرَةً على القِرْبَةِ فإذَا بها نَحْوُ خَمْسٍ أَوْ سِتِّ قَطَرَاتٍ مِنَ الماءِ . ومعَ شدَّةِ عَطَشِهِ لم يَجْرُؤْ على شُرْبِها .

وبينَما هُوَ يُثَبِّتُ القِرْبَةَ تحتَ إبطِهِ رَأَى على الصُّخورِ كلباً يَلْهَثُ مِنْ

شِدَّةِ العَطَشِ . وجعَلَ جُولُوك ينظرُ للكلبِ مَرَّةً وإلى قِمَّةِ الجَبَلِ والنَّهرِ الذَّهَبِيِّ مَرَّةً أُخْرَى ، وهُوَ في حَيرَةٍ لا يَدْرِي ماذا يفعلُ .. ثم ازْدَادَتْ حَيْرَتُهُ عندما تذكَّرَ فجأَةً ما قاله القَزَمُ الأَصْفَرُ منْ أنَّ الشخصَ السعيدَ المَحْظُوظَ هو مَنْ يَبْلُغُ قِمَّةَ الجبلِ مِنَ المُحاوَلةِ الأُولَى .

وحَاوَلَ جُولُوك أَنْ يَمُرَّ بالكلبِ دونَ أَنْ يَرِقَّ لِحَالِهِ . ولكنَّ عُوَاءَهُ الباكيَ اسْتَوْقَفَهُ ، فصاحَ منْ شِدَّةِ التَّأَثُّرِ : « لَعْنَةُ اللهِ عَلَى المَلِكِ وذَهَبِه » . ثم أَسْرَعَ فَصَبَّ قَطَرَاتِ الماءِ الباقيةَ مَعَهُ في فمِ الكلبِ فَشَرِبَها ونَهَضَ قَافِزاً .

وفجأَةً اخْتَفَى ذَيْلُ الكلبِ ، ولَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، واحْمَرَّ لوْنُ أنفِهِ . وما هِيَ إلا دَقِيقَةٌ واحدةٌ حتَّى اخْتَفَى الكلبُ وظَهَرَ مكانَهُ مَلِكُ النَّهرِ الذَّهَبِيِّ .

وابْتَسَمَ الملكُ لِجُولُوك ، ثم انْحَنَى إلى جانبهِ فقطَفَ زَهْرَةَ زَنْبَقٍ تتَلأْلأُ على وُرَيْقَاتِها البيضاءِ ثلاثُ قَطَرَاتٍ منَ النَّدَى . وَهَزَّ المَلِكُ – أو القَزَمُ الأَصْفَرُ – هذه القَطَرَاتِ في قِرْبَةِ جُولُوك ثم قال لهُ : « أَلْقِ بهذهِ القَطَرَاتِ في النهرِ ثم انْزِلْ مِنْ على الجانبِ الآخرِ للجبلِ إلى وَادِي الْكَنْزِ » . ولم يَكَدِ القَزَمُ يُتِمُّ هذهِ الكلماتِ حتَّى اخْتَفَى ...

وَقَفَ جُولُوك على حَافَةِ النهرِ الذَّهَبِيِّ ، ثم أَلْقَى فيه بِقَطَرَاتِ النَّدَى الثلاثِ ، فأَحْدَثَ سُقُوطُها دَوَّامَةَ ماءٍ ، وبَدأَ جُولُوك يَشْعُرُ بخَيْبَةِ أَمَلِهِ حِينَما رَأَى الماءَ يَتَلاشَى ويَجفُّ بَدَلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ ذَهَباً !

ولكِنَّهُ أَطَاعَ القَزَمَ الأَصْفَرَ مَلِكَ النَّهرِ الذَّهَبِيِّ ، ونزَلَ من على الجانبِ الآخرِ للجبَلِ . وما كادَ يَهْبِطُ الجبَلَ ويَصِلُ إلى وَادِي الكَنْزِ حتى رَأَى نَهْراً

كالنَّهرِ الذَّهَبيِّ يَنْبُعُ مِنْ فَجْوَةٍ كبيرةٍ في الصُّخُور . ثم رَأَى مِيَاهَهُ تَجْرِي بين كُثْبَانِ الرِّمالِ الجَافَّةِ .. !

وفجأةً رَأَى الأَعْشَابَ الخَضْرَاءَ تَنْمُو على ضَفَّتَي النهرِ ، والأزهارَ على اختلافِ أنواعِها تَتَفَتَّحُ ، وَأَشجارَ الكَرْمِ تُغَطِّي أَرْضَ الوَادِي ! ! وهَكَذَا أَصْبَحَ وَادِي الكَنْزِ مَرَّةً أُخْرَى جَنَّةً مِنْ جَنَّاتِ الدُّنيا !

* * *

في هذا الوَادِي النَّضِيرِ عَاشَ جُولُوك . وكان تُفَّاحُ الوَادِي أَحمرَ شَديدَ الحُمْرَةِ ، وعِنَبُهُ أبيضَ شديدَ البَيَاض ، وقَمْحُهُ أصفرَ شَديدَ الصُّفْرَةِ . ولم يَحْدُثْ أبداً أنْ طُرِدَ الفُقراءُ مِنْ أمامِ منزلِ جُولُوك أو رُدُّوا خائبينَ ! ..

لقد كان النهرُ بالنسبةِ لجولُوك نَهْراً ذهبيًّا كما وعَدَهُ مَلِكُ النهرِ مِنْ قَبْلُ ! ..

مطابع الشروق
بيروت : مار الياس - شارع ستيدة صيدنايا - بناية صفا
ص.ب : ٨٠٦٤ - برقيا : داشروق - تلكس ٢٠١٧٥١٤
[illegible] - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
٨٦٧٥٥٥ - ٣٠٧٩٨٤



حكايات الشروق

- البلبل والفلاح
- مالك السعيد
- زوجة السلطان
- نداء البحيرة
- الصياد والسمكة
- القاضي العادل
- القطتان
- المهرج
- البقرة الحمراء
- الفأر طويل اللسان
- أرض الذهب
- النهر الذهبي
- الريح الشمالية